

٣- الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

وكما أجاد المسلمون فن الخط ، فقد بلغوا في الزخرفة شأواً بعيداً أقل ما يشهد به أن كلمة (الأرابسك) عُلِمَ — في تاريخ الفن — على نوع معين من الزخرفة ابتدعه الفنان المسلم . حقاً إنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجدته يده من مخلفات الفنون السابقة على الإسلام ، إلا أنه لا سبيل إلى إنكار مقدرته في طريقة رسم هذه الوحدات الزخرفية وتوزيعها والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقاً يجعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هي كذلك ، ولكنه صهرها في بوتقته ومزجها بفلسفته وسلط عليها أشعة عبقريته فخرجت من يده فناً جديداً لا يخفى عليك أصله ولكنك لا تستطيع أن تفكر عليه شخصيته القوية الواضحة

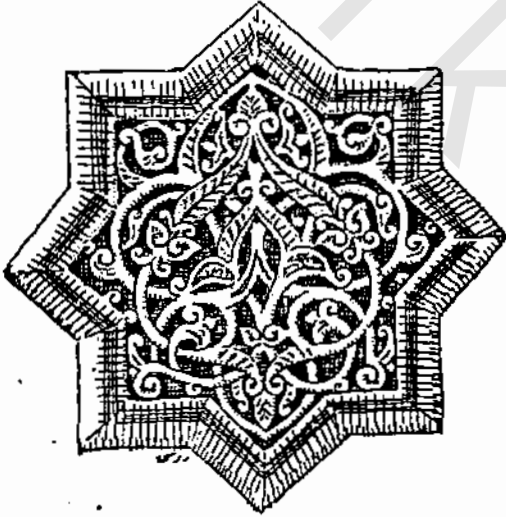
لم يخترع أشكالاً هندسية جديدة ، ولكنه بالغ في تقسيمها وتحليلها ، نراها تارة متشابكة ، وأخرى متداخلة ، وأحياناً متلاصقة وأحياناً متباعدة ، حتى ليصح لنا أن نقول في المثلثان إنه بحث في هذا النوع من الزخرف روحاً من لدنه فبدأ في ثوب من الجمال قشيب لم يكن له قبل الإسلام

ولم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان ، والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويراً كادت معه أن تفقد شخصيتها كوحدة نباتية أو حيوانية ، ولكنها وإن بعدت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته

ونفر من الفراغ ، وكره أن يرى سطحاً عاطلاً من الزخرف فكرر الوحدات الزخرفية المذكورة تكراراً يمكن أن يستمر دون أن يقف عند حد

هذه المظاهر الجديدة إتقان الزخرفة الهندسية ، ونحوها العناصر النباتية والحيوانية ، وتكرار الوحدات الزخرفية ، والفنور من الفراغ ، هي في ظلال نتيجة لبعض توجهات في الدين الإسلامي : فقد كان التصوير — وستحدث عنه فيما بعد —

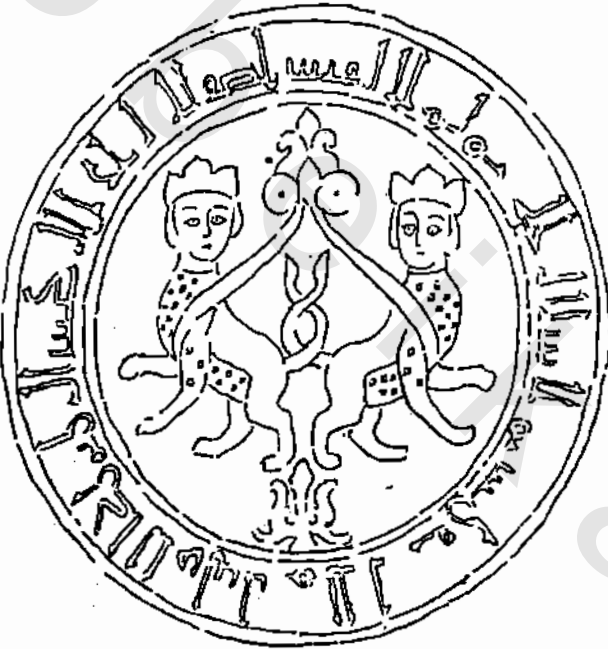
أمراً غير مرغوب فيه عند كثير من المسلمين نظراً لما حرم حول مزاولته من شك ، فأنصرف نشاط الفنانين إلى نواح أخرى ؛ ولعلمهم كانوا متأثرين في بعض ما اتجهوا إليه بما روى في صحيح البخاري (كتاب البيوع) عن سعيد بن أبي الحسن إذ يقول : « كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما إذ أتاه رجل فقال : يا ابن عباس ، إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي ، وإني أصنع هذه التصاوير . فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، سمعته يقول من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافع فيها أبداً .



شال من « الأرابسك » على الخشب من زخارف
مير ابن طولون — من كتاب تاريخ ووصف
الجامع الطولوني للأستاذ « محمود عكوش »

فربما الرجل ربوة واصفر وجهه ؛ فقال ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فمليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح « فلا عجب إذا بلغت الزخارف الهندسية على أيديهم ذروة الإجابة ، وأصبحت الزخارف النباتية آية في الإبداع والإتقان وإن كانت بعيدة عن تمثيل الطبيعة تمثيلاً صحيحاً في معظم الأحيان ، شأنها في ذلك شأن الزخارف الحيوانية التي ترخص في رسمها بعض الفنانين . على أن هذا البعد عن الطبيعة لم يكن نتيجة لضعف في الملاحظة أو نقص في القدرة بل هو ، في أغلب الظن ، مقصود لذاته ، ولعله ناشئ عن تلك المقيدة التي يؤمن بها كل مسلم أشد الإيمان : ذلك أن البقاء لله وحده ، وأن العالم بمن فيه وما فيه مآله إلى الزوال (كل شيء هالك إلا وجهه) (كل من عليها فان ، ويبقى

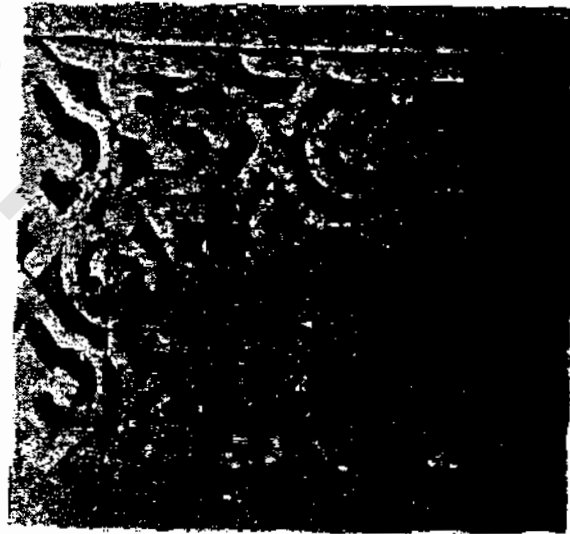
أن يرسم بريشته ما يضاها به خلق الله . كما أنه أيضاً قد آمن
— في نفس الوقت بطريقته هذه — استغراق الناظر لذلك
الأثر الفني في جمال الأثر فينسى مبدع الكائنات وهو يتأمل
فيما صنعه الإنسان



مثال من « الأرابيك » على النسيج — من زخارف
إحدى الملح التي ترجع إلى عصر المماليك بالله
الخليفة الفاطمي — من كتاب الزخرفة المنسوجة
في الأقمشة الفاطمية لمحمد عبد العزيز مرزوق

على أن هناك ظاهرة في الزخرفة الإسلامية تلفت النظر ،
تجلى لنا في الوحدات الزخرفية التي نرى فيها طائراً ينبت من
جناحيه وذيله أغصان تتصل بها أزهار ، أو سمكة ينتهي ذيلها
بفرع نباتي ويخرج من رأسها وجسمها أوراق أشجار ، أو رأس
آدمي مركب على جسم طائر ذيله عبارة عن غصن طويل ملتف
على نفسه ، أو قطعة من خشب على شكل قيثارة مثلاً يخرج
من جانبيها الأيمن والأيسر رأسا حصانين في فم كل منهما لجام
يتخلص من طبيعته هذه بالتدرج حتى يصبح فرعاً نباتياً
تتصل به أغصان وأزهار ، وينبت من أذن كل منهما فرع
نباتي يدور حول نفسه أولاً ثم يتفرع إلى فروع عدة ، أو غير
ذلك من الوحدات الزخرفية التي يجمع فيها الفنان عناصر الطبيعة
المختلفة من حيوان ونبات وجماد بحيث يخرج بعضها من بعض ؛
وكأنه في عمله هذا يرى أن المخلوقات كلها سواء استوى لديه

وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . وليس من اللائق وهذه
المقيدة منقوشة في أذهان المسلمين جميعاً أن يخلد رجال الفن
منهم بأعمالهم الفنية ما كتب الله عليه الفناء ، لذلك نجدهم
لم يمتنعوا بتصوير الشخصيات العظيمة في لوحات كبيرة أو تماثيل
ضخمة تبقى على الدهر ، أو تمثيل جمال الطبيعة بالنقل عنها نقلاً
صحيحاً ، بل يأخذون من عناصرها ما يرون ، ويهذبون فيه
ما شاءت لهم ميولهم ومواهبهم الفنية ، ثم يكوّنون من هذه
العناصر المهيبة زخرفة لا تمت إلى الطبيعة بصلة ، قوامها أغصان
نباتية متشابكة يتفرع بعضها من بعض ، وأوراق أشجار مختلفة
يخرج بعضها من بعض ، وأزهار وفواكه تنبت من الأوراق أحياناً
ومن الأغصان أحياناً أخرى ، وهي في مجموعها تعطى منظراً
ترتاح له العين ويسر به القواد



مثال من « الأرابيك » على الحجر — من زخارف
المنطقة الجنوبية لمسجد الحاكم بأمر الله — من كتاب مساجد
القاهرة قبل عصر المماليك لمحمد عبد العزيز مرزوق

ويعني الفنان المسلم عناية واضحة بالتفاصيل الدقيقة ، ويميل
— بل ويسرف في هذا الميل أحياناً — إلى عدم ترك فراغ
ملحوظ بين الوحدات الزخرفية ، وربما كان مسوقاً إلى ذلك
بفكرة كامنة في نفسه تجعله حريصاً على أن يخرج زخرفته
بحيث لا يستقر النظر فيها على شيء معين يترك في الذهن صورة
واضحة تحتل بؤرة الشعور . أما هذه الفكرة فهي رغبته في الحيلولة
بين نفسه وبين الفروع الذي يملك الفنان أحياناً عند ما يتأمل
في أثره الفني فيراء واضح العالم والخطوط ، ويدرك أنه استطاع